المحور الرابع: نزول القرآن الكريم:

دواعي البحث في نزول القرآن:

ورود آيات في القرآن الكريم تشير إلى نزوله جملة واحدة ، منها قول الله تعالى : "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" وقوله سبحانه : "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ "،

وآيات أخرى تشير إلى نزوله مفرقاً منها قوله تعالى "وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً" ومعنى)فرقناه(أي في النزول ، فلم ننزله على النبي صلى الله عليه وسلم كله مرة واحدة،

ولكشف هذا اللّبس وجب بيان حقيقة النزول وأشكاله:

أولا: معنى النزول:

يدور لفظ النزول في اللغة العربية حول معنيين:

الأول: الحلول في المكان ، يقول ابن منظور: "النزول الحلول وقد نزلهم ونزل عليهم ونزل بهم ... تقول: أنزله في مكان كذا أي : أحلهّ به وآواه إليه ".

و الثاني : الانحدار إلى الأسفل، ومن هذا المعنى قوله تعالى: "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون".

وإذا كان القرآن الكريم قد وصف بالنزول والإنزال والتنزيل في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : "وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً "، وقوله سبحانه : "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ" ،

فالمعنيان السابقان للنزول ، وهما : الانحدار من أعلى إلى أسفل ، والحلول بالمكان لا يستقيمان في جانب القرآن لأنهما يسلتزمان الحركة والجسمية ، والقرآن بأي معنى من معانيه التي يستعمل فيها ليس بجسم حتى يتصف بالهبوط من أعلى إلى أسفل أو بالانتقال من مكان والحلول بآخر.

لذلك فقد ذهب العلماء إلى أن معنى الإنزال بالنسبة للقرآن يؤول إلى "الإعلام بهذا الكتاب الكريم والإخبار به"،

ثانيا: تنزّلات القرآن الكريم:

سلك العلماء طرقا فى التوفيق بين ما يفيده ظاهر الآيات من إنزال القرآن جملة ، وبين واقع إنزال القرآن منجّما طيلة فترة النبوة؛

الرأي الأول: وهو أشهر المذاهب واصحّها: أن القرآن الكريم قد أنزل على مرحلتين ؛ في المرحلة الأولى أنزل جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيما لشأنه عند الملائكة.

والدليل على نزول القرآن الكريم جملة واحدة في مرحلة أولى إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ الدخان: 2]. ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر: 1، وقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ البقرة: 185.

فدلت هذه الآيات على أن القرآن أنزل جملة واحدة. ثم في مرحلة ثانية نزل بعد ذلك منجما على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ روى النسائي في سننه بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: " وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا " الفرقان: 33، (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنزلْنَاهُ تَنزيلًا) الإسراء: 106.

ونقل سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: " فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل عليه السلام ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ويرتله ترتيلا". الرأي الثاني: أنه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ليلة قدر ، في كل ليلة ما يقدر الله إنزاله في كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة ، وممن قال بهذ القول الإمام فخر الدين الرازي.

الرأي الثالث: أن القرآن الكريم قد ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ، ثم بعد ذلك نزل منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات ، حكاه السيوطي رحمه الله .

ثالثا: مدة نزول القرآن الكريم على النبي وكيفيته:

ونقصد بذلك بيان مدة نزول القرآن منجما، ثم القدر الذى كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى كل مرة؛

بالنسبة للمسالة الأولى: أثبتت الروايات الصحيحة ، أن نزول القرآن مفرقا قد استغرق مدة الرسالة كلها ، ولا خلاف في ذلك ، عن عباس في ما رواه البخاري :"بُعِث

رسولُ الله لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمِر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين"، وهو أصح الأقوال.

أما بالنسبة للقدر الذي كان ينزل من القرآن في كل مرة: فيقول فيه الإمام السيوطي: "الذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة؛ خمس آيات وعشراً ، وأقل أو أكثر . وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة وصح نزول :" غَيْرُ أُولِي الضَّرَر" وحدها وهى بعض آية."

كما صح نزول الآية الواحدة، كما فى قوله تعالى: "وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً".

الفرق بين القرآن الكريم والكتب السابقة في كيفية النزول:

القرآن الكريم كما سبق نزل منجّما على مدى ثلاث وعشرين سنة، حسب الأحوال والمناسبات ، وجاء التصريح بذلك في قوله تعالى : "وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً" ،

أما الكتب السابقة مثل التوراة والإنجيل ، فالذي عليه جمهور العلماء أنها نزلت جملة واحدة، والدليل على ذلك: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً".

حكمة نزول القرآن منجمًا:

نستخلص من وراء نزول القرآن الكريم مفرقًا حكما كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي:

- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، بعدما تحمّل فى سبيل الدعوة الكثير من أذى قومه، قال تعالى: "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"
- تيسير حفظ القرآن الكريم وفهمه لأمة لا تعرف القراءة ولا الكتابة، قال تعالى:"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِين"
- مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع، وتربية الأمة الجديدة، حيث تدرّج القرآن فى علاج ما تأصّل فى النفوس من أمراض اجتماعية، فمثلا أصل الزنا حرم بمكة؛ قال

تعالى: "وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً". أما العقوبات المترتبة فلم تنزل إلا بالمدينة في سورة النور.

- تحدّي العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة وإثبات عجزهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم، قال تعالى: "وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً"
- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم،

نزول القرآن على سبعة أحرف:

روى البخاري من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه."

وبيان مواقف العلماء في هذه المسألة في النقط الأتية:

النقطة الأولى: أنه لا خلاف في أن نزول القرآن على سبعة أحرف كان الغرض منه التيسير على الأمة فى قراءة القرآن،

عن أبى بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أَضَاةِ(غدير) بنى غفار فأتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السَّلَامُ، فَقالَ: إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ علَى حَرْفٍ، فَقالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وإنَّ أُمَّتي لا تُطِيقُ ذلكَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقالَ: إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ علَى حَرْفَيْنِ، فَقالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وإنَّ أُمَّتي لا تُطِيقُ ذلكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقالَ: إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ علَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، فَقالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وإنَّ أُمَّتي لا تُطِيقُ ذلكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقالَ: إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ علَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فأيُّما حَرْفٍ قَرَؤُوا عليه فقَدْ أَصَابُوا". رواه مسلم.

النقطة الثانية: أن الأحرف السبعة غير القراءات السبعة، وقد نبه السيوطي رحمه الله تعالى إلى هذا التباين بين الأحرف والقراءات فقال :(قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة " ،

النقطة الثالثة: أن أرجح الأقوال بالمراد بالأحرف السبعة أنها سبع لهجات فى الكلمة الواحدة، واستشهد أصحاب هذا القول بحديث أبي بكرة أن جبريل عليه السلام ، قال :" يا

محمد اقرأ القرآن على حرف ، قال ميكائيل : استزده ، فاستزاده ، قال : اقرأ القرآن على حرفين ، قال ميكائيل : استزده ، فاستزاده ، قال : اقرأ القرآن على ثلاثة أحرف ، قال ميكائيل : استزده حتى بلغ سبعة أحرف ، قال كل شافٍ كافٍ ، ما لم يختم آية عذاب برحمة ، أو رحمة بعذاب ، نحو قولك : تعال وأقبل وهلم ، واذهب وأسرع وأعجل" .

النقطة الرابعة: أن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، قد جمع القرآن على حرف قريش، وقد أشار السيوطي رحمه الله تعالى إلى ذلك ، فقال : "قال الحارث المحاسبي: "المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل الشام والعراق في حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقة على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن".

نماذج لبعض اللغات(اللّهجات) التي نزل بها القرآن:

الاستنطاء:

وهو جعل العين الساكنة نونًا، فيقولون: "أنطى" بدلاً من "أعطى"، وقرئ قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ الكوثر: 1، إنا أنطيناك الكوثر، وورد الحديث الشريف: (اللهم لا مانع لما أنطَيْتَ، و لا منطي لما منعت)، بدلا من:(لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت.(

الطمطمانية : وهي إبدال لام التعريف ميمًا، فيقولون مثلاً: جاء امولد، وصفا امجو، يَعْنون بذلك: جاء الولد، وصفا الجو. يروى أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين صحابته، فقال له: يا رسول الله، "هل مِن امبر امصيام في امسفر؟" فردَّ عليه صلى الله عليه وسلم فقال: "ليس من امبر امصيام في امسفر"، فقال له صحابته رضي الله عنهم : يا رسول الله، ماذا قال لك، وماذا قلت له؟ فقال: قال: "هل من البر الصيام في السفر"؟ فأجبته: "ليس من البر الصيام في السفر".

الفحفحة (لهجة هُذَيل):

وهي قلب الحاء عينًا في"حتى"، وكانت هذه اللهجة في مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقد كان من قبيلة هُذَيل.

الكشكشة:

وهي إبدال الكاف المؤنَّثة في الوقف شينًا، مثال ذلك قراءة مَن قرأ: "قد جعل ربُّشِ تحتَشِ سريًّا"، وقراءة مَن قرأ: "إن الله اصطفاشِ وطهَّرشِ واصطفاشِ على نساء العالمين"، بدلاً من القراءة المشهورة: "قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا "مريم: 24، و"إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ" آل عمران: 42.

ومنها الفحفحة (لهجة هُذَيل):

وهي قلب الحاء عينًا في"حتى"، وكانت هذه اللهجة في مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقد كان من قبيلة هُذَيل.

ومنها الكشكشة:

وهي إبدال الكاف المؤنَّثة في الوقف شينًا، مثال ذلك قراءة مَن قرأ: "قد جعل ربُّشِ تحتَشِ سريًّا"، وقراءة مَن قرأ: "إن الله اصطفاشِ وطهَّرشِ واصطفاشِ على نساء العالمين"، بدلاً من القراءة المشهورة :"قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا "مريم: 24، و"إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ" آل عمران: 42.